بحث " منزلة النص ومكانته في الكتاب والسنة "

تأليف

أ.د / عبد الله شاكر الجنيدي

لمؤتمر النص الشرعي بين الأصالة والمعاصرة / الجمعية الأردنية للثقافة المجتمعـــية

منزلة النص ومكانته في الكتاب والسنة

إننا نعيش واقعًا يَعُجُّ بالفِتن والرزايا، وإن الحلق ليجف والكلمات لتتوارى مما نراه من السعيِّ الحثيث والدّؤوب لتغيير المسلَّمات والمقرَّرات عند المسلمين وجعلها مجالاً للنقاش والحوار، ومن ثَمَّ القبول أو الردّ واستهدافِ مكانة النص الشرعي وقدسيته؛ كي لا يبقى لدَى المسلم ثوابتُ ولا أصولُ يرتكز عليها ويفيء إليها عند الفتن والمدلهمات والأمور المشتبهات، والهدف من وراء ذلك كلّه أن ينسلخ المسلم من دينه ولا يبقى لديه من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه.

إن أمة الإسلام اليوم بحاجة ماسة إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺبعد أن أصبحت غرضاً للسئام، وطعمة للئام، وعبثاً للأقزام، وبعدت عن مصدر عزها وسعادتها، وينبوع مبادئها وقيمها ومثلها، فلماذا كل هذا – أيها المسلمون– كأن لم يكن بيننا كتاب وسنة!

ما أحسن عقيدة أهل السنة والجماعة ولو لم يكن في فضلها إلا هاتان الميزتان لكفتا: الميزة الأولى: أن فيها تعظيم النصوص وإقرارها وإمرارها كما جاءت، دون الاشتغال بتحريفها وتصريفها عن معانيها، مما يهون من شأن النص ويجعل الإنسان –ربما– يكره هذه النصوص، أو يكره أن يوردها أو يضيق صدره إذا مرت عليه؛ بل يكون في ذلك تعظيم للنصوص وحماية لجانبها؛ وهذه هي الميزة الأولى العظيمة.

الميزة الثانية: حماية العقل البشري من أن يضيع في بيداء ليس فيها هادٍ ولا دليل، بعد ما ترك النص الشرعي، فأصبح يضرب يميناً وشمالاً في تيه بعيد، ليس مأجوراً به في الآخرة ولا محموداً به في الدنيا.

فأما في الآخرة: فلن يؤجر أولئك الذين اشتغلوا بصرف النصوص عن معانيها، بل هم أولى بالإثم على ما تجرءوا عليه من النصوص.

وأما في الدنيا: فإن في ذلك إضاعة للعقل، وصرف له عن مهماته الحقيقية، التي تتمثل في: فهمه للكتاب والسنة فهماً ظاهراً بعيداً عن التكلف، ومعرفة ماذا أراد الله تعالى منا، وما يجب أن نعمله، والبحث عن السبل لإعزاز هذا الدين؛ بتقوية جانبه وشد ركنه وقتال أعدائه .

فإذا تعدى العقل حدوده وصادم الوحي كانت الهلكة والضلال، وهل طرد إبليس من الجنة إلا لما أخضع الأمر الإلهي لميزان عقله القاصر؟! فضلَّ وهوى؛ إذ أمره الله – تعالى – بالسجود لآدم، فلم يرتضِ عقله أن يسجد مَن خُلق مِن نار لَمن خلق مِن طين، فجادل وامتنع، فحقت عليه اللعنة {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} (ص: ٧٦– ٧٨).

وكفار مكة رفضوا الإسلام، وعارضوا القرآن؛ لأن عقولهم القاصرة مانعت أن يكون محمد اليتيم الفقير نبيًّا ورسولاً، وأرتهم عقولهم أن النبي لابد أن يكون عظيمًا غنيًّا قويًّا {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} (الزُّخرف: ٣١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –: "والداعون إلى تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يدْعون إلى تمجيد صنم سموه عقلاً، وما كان العقل وحده كافيًا في الهداية والإرشاد وإلا لما أرسل الله الرسل". [١].

وقال ابن القيم – رحمه الله تعالى –: "وكل من كان له مسكة عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما ينشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساده. وأكثر أصحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل؛ بل هم شر من الحمير، وهم الذين يقولون يوم القيامة {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك: ١٠)[٢] أهـ.

إن الدعوة التي يطرحها العقلانيون لعقلنة الإسلام، وجَعْلِه يتواءَمُ مع متطلبات العصر، ما هي إلا امتدادٌ لِتَسَلّطِ العقل على الشرع الذي أخذه فلاسفة العرب عن ملاحدة اليونان قديمًا، ثم أفرغوه في مذاهب المعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم من الضلال. وها هو ذا المذهب يعود من جديد ولكن بصورة أخرى، وتحت شعارات براقة من تهذيب الإسلام وعقلنته ، والنتيجة : تمييع أحكام الإسلام ليواكب العصر . ويخدعون عامَّة المسلمين

---

[١] - درء تعارض العقل والنقل (١/٢١)

[٢] - إعلام الموقعين (١/٦٨)

بأنهم بعقولهم وأهوائهم يراعون روح الشريعة، ومقاصد الإسلام العامة، وما درى هؤلاء السفهاء أن مقاصد الإسلام لا سبيل إلى إدراكها إلا من خلال النصوص الشرعية.

ودونك أيها القاريء الكريم هذا البحث المختصر الذي نحاول فيه أن نبين ، منزلة النص ، ومكانته ، في ثلاثة محاور رئسية وهي :

١ – منزلة النص في الكتاب والسنة.

٢ – منزلة النص عند الصحابة والتابعين.

٣ – منزلة النص عند الأئمة.

أولاً : منزلة النص في القرآن والسنة .

إن النص الشرعي هو المصدر الأساسي للحق ، والمنبع الصافي لدين الإسلام ، فيه المنهج الكامل لحياة البشر ، والميزان الصحيح الذي توزن به الأقوال والأعمال والأفعال ، وبالإعراض عنه ، والصد عن سبيله تقع الفتن ، وتحل الرزايا والمحن .

إن منزلة النص وعظمته إنما تأتي من تعظيم الرب تعالى وتمجيده؛ لأن تعظيمه سبحانه مستلزم لتعظيم أحكامه ونصوص شرعه من القرآن والسنة قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – : "أول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله إلى كافة الناس ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه ، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل و اتباعه وتعظيم نهيه واجتنابه فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر" أهـــ.

ولقد تضافرت أدلة الكتاب والسنة على بيان عظم منزلة النص الشرعي ، منها :

۞ ١ – من علامات الإيمان التسليم الكامل المطلق للنص الشرعي دون اختيار أو مشورة في قبوله ، قال تعالى :" وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ".

قال ابن كثير رحمه الله: "فهذه الآية عامة فيجميع الأمور. ذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحدٍ مخالفته. ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأي ولا قول"[1]أهـــ.

فمَن عظَّم الله – تعالى – طرح هواه، واتبع الكتاب والسنة، ونبذ ما سواهما، وهذه صفة أهل الإيمان واليقين والتقوى ،وقد وصف الله – تعالى – المؤمنين بأن شأنهم مع رسول الله ﷺأن يقولوا سمعنا وأطعنا، وذلك في قوله – سبحانه – :" إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (النور : ٥١)

وقال السعدي :" أي: { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ } حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها، { أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

{ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله ".[2]

فلا بد من التسليم التام والخضوع الكامل للنصوص الشرعية، والتسليم يعني خضوع القلب وانقياده لربه المتضمن لأعمال الجوارح ، كما أن التسليم هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع، وصاحب هذا التوجه هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة.

[1] – تفسير ابن كثير (٦ / ٤٢٣)

[2] – تفسير السعدي (ص :٥٧٢)

إن صفة التسليم للنصوص الشرعية من أهم صفات أهل الإيمان، فلا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله تعالى، كما أنه ممن نال التمسك بالعروة الوثقى ، قال تعالى : " وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ "(النساء: ١٢).وقال تعالى: " ومَن يُسْلِمْ وجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى "(لقمان: ٢٢).

وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –: أثناء حديثه عن السلف الصالح – :"وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقولة، ولا قياسه ، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات، والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم "

ويوضح –رحمه الله– أهمية هذا الأمر فيقول: "جماع الفرقان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال والرشاد والغي، وطريق السعادة والنجـــــاة، وطريق الشقاوة والهلاك ؛ أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل"[١] .

إن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمـــة نبي صدقت نبيها، وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فما أمرها به، أو نهاها عنه، أو بلّغها عن ربها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وإيمانها واستسلامها على معرفته، وقد كانت هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارفاً وعلوماً لا تسأل نبيها لَمَ أمر الله بذلك؟ ولَمَ نهى عن ذلك؟ ولَم فعل ذلك ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام.

وقد نفى الله – جل ثناؤه – الإيمان بالكلية نفياً مؤكداً بتكرارِ أداةِ النفي وبالقسمِ ، عمّن تولى عن الطاعة والامتثال للنص الشرعي – وإن كان قد أتى بالقول – ، وأعرض عن تحكيمه ولم يرض به ، أو وجد في نفسه حرجا من ذلك ، وجعل – جل ذكره – تحكيم النص شرط الإيمان الذي لا يتحقق إلا به .قال تعالى : " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " (النساء : ٦٥) .

يقول أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية : « يعني – جل ثناؤه – بقوله :فليس الأمر كما يزعمون أن يؤمنوا بما أنزل إليك وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ،ويصدوا عنك إذا دعوا إليك يا محمد ، واستأنف القسم – جل ذكره – فقال : " وربك "يا محمد " لا يؤمنون " أي : لا يصدقون بي وبك وبما أنزل إليك " فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم " حتى يجعلوك حكما بينهم فيما اختلط بينهممن أمورهم ، فالتبس عليهم حكمه ... ثم يفسر نفي الحرج بنفي الشك في طاعتهوأن الذي قضى بينهم حق لا يجوز خلافه » [٢] .

فالتسليم المطلق للنص الشرعي والمتمثل في كتاب الله وسنة رسول الله والقبول به مع الارتياح وعدم الحرج هو الترجمة الحية لصدق الإيمان وحقيقة الإسلام . فلم يكتفِ عز وجل منهم بمجرد التحكيمِ للنص ، حتى يضيفوا إلى ذلك عَدَمَ وجودِ شيءٍ من الحرج في نفوسهم، بقوله جل شأنه: (ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ). والحَرَجُ: الضِّيقُ. بل لا بد من اتساع صدورهم لذلك وسلامتها من القلق والاضطراب. ولم يكتف تعالى أيضا هنا بهذين الأمرين، حتى يضموا إليهما التسليم وهو كمال الانقيادِ للنص ، بحيث يتخلّونَ ها هُنا من أي تعلق للنفس بهذا الشيء، ويسلموا ذلك إلى الحكمِ الحقِّ أَتمَّ تسليم، ذلك بالمصدر المؤكد، وهو قوله جل شأن: (تَسْلِيماً) المبين أنه لا يُكْتَفى ها هنا بالتسليم.. بل لا بد من التسليم المُطْلَقِ

---

[١] – مجموع الفتاوي (١٣ / ٢٨) .

[٢] - تفسير الطبري (٧ / ٢٠٠) .

ويقول الجصاص الرازي في تفسير هذه الآية: "في هذه الآية دلالة على أن من ردّ شيئاً من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله ﷺفهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم؛ وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة، وقتلهم وسبي ذراريهم؛ لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي ﷺقضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان". (١)

ويقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم...} (النساء: ٦٥): "يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكِّم الرسول ﷺفي جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهرًا وباطنًا" (٢).

وقال ابن القيم :" وقد أقسم سبحانه بنفسه المقدسة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم ولا يكفي ذلك في حصول الإيمان حتى يزول الحرج من نفوسهم بما حكم به في ذلك أيضا حتى يحصل منهم الرضا والتسليم فقال تعالى {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} (النساء :٦٥) فأكد ذلك بضروب من التأكيد

أحدها: تصدير الجملة المقسم عليها بحرف النفي المتضمن لتأكيد النفي المقسم عليه وهو في ذلك كتصدير الجملة المثبتة بإن.

الثاني: القسم بنفسه سبحانه.

الثالث: أنه أتى بالمقسم عليه بصيغة الفعل الدالة على الحدوث أي لا يقع منهم إيمان ما حتى يحكموك.

الرابع: أنه أتى في الغاية بحتى دون إلا المشعرة بأنه لا يوجد الإيمان إلا بعد حصول التحكيم لأن ما بعد حتى يدخل فيما قبلها.

الخامس: أنه أتى المحكم فيه بصيغة الموصول الدالة على العموم وهو قوله {فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} أي في جميع ما تنازعوا فيه من الدقيقة والجليلة.

السادس أنه ضم إلى ذلك انتفاء الحرج وهو الضيق من حكمه.

السابع: أنه أتى به نكرة في سياق النفي أي لا يجدون نوعا من أنواع الحرج البتة.

الثامن: أنه أتى بذكر ما قضى به بصيغة العموم فإنها إما مصدرية أي من قضائك أو موصولة أي من الذي قضيته وهذا يتناول كل فرد من أفراد قضائه.

التاسع: أنه لم يكتف منهم بذلك حتى يضيفوا إليه التسليم وهو قدر زائد على التحكيم وانتفاء الحرج فما كل من حكم انتفى عنه الحرج ولا كل من انتفى عنه الحرج يكون مسلما منقادا فإن التسليم يتضمن الرضا بحكمه والانقياد له.

العاشر: أنه أكد فعل التسليم بالمصدر المؤكد .(٣)

وقال أيضًافي معرض بيان معنى الرضا بالنبيﷺ رسولاً: "وأما الرضا بنبيه ﷺرسولاً فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه".(٤)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم، في أصول دينهم وفروعه، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء أن لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما حكم، ويسلموا تسليمًا" .(٥)

---

(١) – أحكام القرآن للجصاص (٣ / ١٨١) .

(٢) – تفسير ابن كثير (٢ / ٣٤٩) .

(٣) – الصواعق المرسلة (٤ / ١٥٢٠) .

(٤) – مدارج السالكين (٢ / ١٧١) .

(٥) – مجموع الفتاوى (٧ / ٣٧ – ٣٨)

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "أقسم الله بربوبيته لرسوله التي هي أخص أنواع الربوبية والتي تتضمّن الإشارة إلى صحة رسالته ﷺ أقسم بها قسمًا مؤكدًا أنه لا يصلح الإيمان إلا بثلاثة أمور :

الأول: أن يكون التحاكم في كل نزاع إلى رسول الله ﷺ.

الثاني: أن تنشرح الصدور بحكمه، ولا يكون في النفوس حرج وضيق منه.

الثالث: أن يحصل التسليم التام بقبول ما حكم به وتنفيذه بدون توان أو انحراف " [١]

وقال ابن حزم رحمه الله: "فسمى الله تعالى تحكيم النبي ﷺ إيمانًا، وأخبر تعالى أنه لا إيمان إلا ذاك، مع أنْ لا يوجد في الصدر حرج مما قضى، فصح يقينًا أن الإيمان عمل وعقد وقول ؛ لأن التحكيم عمل، ولا يكون إلا مع القول ومع عدم الحرج في الصدر وهو عقد"[٢].

۞ ٢ – الإعراض عن النص الشرعي أو معارضته أو مجادلته ، و التحاكم إلى غيره من الأقوال والآراء والأهواء ، من صفات المنافقين .

فقد أخبر– عز وجل – أن الإعراض عن النص الشرعي أو معارضته أو مجادلته ، والتحاكم إلى غيره من الأقوال والآراء والأهواء ، من صفات المنافقين ، فقال تعالى :" ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا " (النساء : ٦٠) .

فالسمع والطاعة، والقبول والإذعان للنص الشرعي هو سبيل أهل الحق والعدل والإيمان، وإن الإعراض عن الوحي أو معارضته أو مجادلته هو سبيل المنافقين.

قال سبحانه: " وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وبِالرَّسُولِ وأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْبَعْدِ ذَلِكَ ومَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌمِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وإِن يَكُن لَّهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ورَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَقَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا وأُوْلَئِكَهُمُ الْمُفْلِحُونَ "(النور: ٤٧– ٥١)

وقال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأَمْرِمنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ والرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِالآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكومَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِويُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وإِلَىالرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْأَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وتَوْفِيقاً " (النساء ٥٩– ٦٢).

يقول ابن تيمية عن هذه الآيات: «ذم الله عز وجل المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم، قالوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات» [٣]

---

[١] - المجموع الثمين (١ / ٣٥) .

[٢] - الدرة ص : ٢٣٨ .

[٣] – مجموع الفتاوى (١٢ / ٣٣٩ – ٣٤٠) .

ويقول محمد رشيد رضا عند تفسيره لقوله تعالى: " وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىمَا أَنزَلَ اللَّهُ ..." الآية والآية ناطقة بأن من صد وأعرض عن حكم الله ورسوله عمداً ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يعتد بمايزعمه من الإيمان، وما يدعيه من الإسلام" [٤]. وهذا النوع من النفاق مما ينافي عمل القلب من القبول والاستسلام.

قال ابنُ أبي العزّ في هذه الآية: « أخبر أنّ المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره، وأنهم إذا دُعوا إلى الله والرسول وهو الدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله صدوا صدوداً، وأنهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً كما يقوله كثير من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم ، إنما نريد أن نحسن الأشياء بحقيقتها، أي ندركها ونعرفها ونريد التوفيق بين الدلائل التي يسمونها العقليات وهي في الحقيقة جهليات، وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول، أو نريد التوفيق بين الشريعة والفلسفة، وكما يقوله كثير من المبتدعة من المتنسكة والمتصوفة : إنما نريد الأعمال بالعمل الحسن والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدَّعونه من الباطل الذي يسمونه حقائق، وهي جهل وضلال، وكما يقوله كثير من المتملكة والمتأثرة: إنما نريد الإحسان بالسياسة الحسنة والتوفيق بينها وبين الشريعة ونحو ذلك؛ فكل من طلب أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول، ويظن أن ذلك حسن، وأن ذلك جمعٌ بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه فله نصيب من ذلك، بل ما جاء به الرسول كافٍ كامل يدخل فيه كل حق» [١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي هذه الآيات أنواع من العِبَر الدالة على ضلال من تحاكم إلى غير الكتاب والسنة وعلى نفاقه وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب، وغير ذلك من أنواع الاعتبار»[٢] .

وقال: « فإن هؤلاء إذا دُعوا إلى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول ؛ والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلى سنته، أعرضوا عن ذلك وهم يقولون: إنَّا قصدنا الإحسان علماً وعملاً بهذه الطريق التي سلكناها والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية» [٣] .

وقال ابنُ القيم: «هذه القواعد الفاسدة هي التي حملتهم على تلك التأويلات الباطلة؛ لأنهم رأوها لا تلائم نصوص الوحي، بل بينها وبينها الحرب العوان، فأجهدوا أنفسهم، وكَدُّوا خواطرهم في الصلح، وزعموا أن ذلك إحسان وتوفيق؛ وكأن الله ـــ سبحانه ـــ أنزل هذه الآيات في شأنهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} (النساء: ٦٠) إلى قوله: {إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} (النساء: ٦٢) »[٤]

۞ ٣- النص الشرعي بين الله للناس فيه كل شيء .

قد بين الله – عزَّ وجلَّ – في القرآن كل شيء في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدنيا والآخرة، وكل ما يحتاج إليه العباد فهو مبين فيه أتم تبيين كما قال سبحانه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } (النحل: ٨٩).

الْكِتَابَ هو القرآن الكريم، وهو هدى للناس كل الناس، فما من خير للبشرية في دينها ودنياها إلا نوه عنه القرآن الكريم، ينقلهم من ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ضلال الباطل إلى هداية الحق، وهذا يظهر في قوله تعالى: "وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" أي يبصركم بحاضركم، ويرسم لكم أسلم طريق لمستقبلكم.

وما من شيء من هذا وذاك إلا اشتمل عليه القرآن الكريم: {مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ} (الأنعام: ٢٨) ، {وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} (يوسف: ١١١) و {تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} (النحل: ٨٩).

---

[٤] – تفسير المنار (٥ / ١٨٥) .
[١] – شرح الطحاوية (٢٢ – ٢٣) .
[٢] – مجموع الفتاوى (٣ / ٣١٧) .
[٣] – مجموع الفتاوى (٥ / ١٨) .
[٤] –الصواعق المرسلة (١ / ٣٤١) .

فلما كان القرآن الكريم تبياناً لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون بها كل خير في الدنيا والآخرة: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)} (الزمر: ٢٣).

والله سبحانه تكرم على البشرية بإنزال منهج يحيط بالإنسان في جميع أحواله، فلا تجد تصرفاً بشرياً إلا وله أمر من الله يستوعبه ، ولا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى: {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} (الفرقان:٣٣).

قال مجاهد: «تبيانًا للحلال والحرام»[١] ، قال الإمام القرطبيُّ: «أي ما تركنا شيئًا من أمر الدين إلاَّ وقد دللنا عليه في القرآن، إمَّا دلالة مبيَّنة مشروحة، وإمَّا مجملة يُتَلقَّى بيانُها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع ، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} (النحل: ٨٩)، وقال: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (النحل: ٤٤)، وقال: {وَمَا ءاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} (الحشر: ٧). فأجْمَلَ في هذه الآية وآية النحل ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيءٍ إلاَّ ذكره، إمَّا تفصيلاً وإمَّا تأصيلاً، وقال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} (المائدة: ٣)»[٢]

قال أبو الفرج ابن الجوزي في تلبيس إبليس وكيده :"ومحال أن يقع في سياسة الإله خلل يحتاج معه إلى سياسة الخلق، قال الله تعالى: " مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ"(الأنعام: ٣٨)،وقال: "لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ" (الرعد: ٤١) ، فمدعي السياسة مدعي الخلل في الشريعة، وهذا يزاحم الكفر". [٣]

وقد تُوفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلِّب جناحيه في السماء إلا ذَكَرَ منه لأمته علماً ، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال:" ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم" [٤]، ومعلوم أن نبينا ﷺ هو أفضل الرسل وأكملهم بلاغاً وأتمهم بياناً ، فالنصوص الشرعية مشتملة على جميع المصالح الدنيوية والأخروية ، يقول لنا ربنا: {أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت:٥١). فبماذا نجيبه؟! نعم يا رب يكفينا، يكفينا «سمعنا وأطعنا».

فمنهج الله الذي أرسل به رسوله ﷺيحيط بحياة الإنسان إحاطة كاملة .. وفيه شفاء للبشرية، وحل مسائلها إلى يوم القيامة.

٤ – الهداية والصلاح والفلاح لمن اتبع النص الشرعي ، والخزي والهلاك في الدنيا و الآخرة لمن خالفه :

فإن من أعظم أسباب الزيغ والهلاك عدم الاستسلام لأمر الله – تعالى – ورفض الخضوع والإذعان والانقياد لأوامره، والاستهانة بحرماته وشعائره، وتقديم أقوال البشر وأهوائهم على قول الله – تعالى – وقول رسوله ﷺ. ولا فلاح ولا فوز للعباد في الدنيا والآخرة إلا بتعظيم الله – تعالى – وإجلاله، ولا يكون ذلك بمخالفة أمره.

قال تعالى :" يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "المائدة (١٥ – ١٦)

لقد كان الناس – أهل الكتاب وغيرهم –، قبل بعثة النبي ﷺ في ظلام من الجهل وبأنبيائه و بشرعه، ومن الجهل بآيات الله في أنفسهم وفي الكون، ومن الجهل بنعم الله عليهم في أنفسهم بالعقل والفكر والاستعداد للخير والكمال، وفي العالم المسخر لهم بما أودع فيه من مرافق العيش والعمران والحياة ، ومن الجهل بقيمة أنفسهم الإنسانية وكرامتها وحريتها.

فلما بعث الله محمداً ﷺ كان بقوله وبفعله وبسيرته معرفاً للخلق بما كانوا يجهلون؛ فكان نوراً سطع في ذلك الظلام الحالك فبدده عن البصائر ، مجلياً للحقائق للبشرية كلها، ولا يحرم من إدراكها إلاّ مطموس البصائر، الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم.وكما كان محمد ﷺ نوراً تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الأشعة الكاشفة للحقائق– كذلك كان الكتاب الكريم الذي أنزله الله عليه، يبين بسوره وآياته وكلماته تلك الحقائق أجلى بيان.

---

[١]- تفسير القرطبيّ (١٠/ ١٦٤) .

[٢]- تفسير القرطبي (٦/ ٤٢٠).

[٣]- تلبيس إبليس (ص : ١١٩) .

[٤] - رواه مسلم (١٨٤٤) .

فبمحمد ﷺ ، وكتابه، تمت نعمة الله تعالى على البشرية كلها، بإظهار وبيان كل ما تحتاج إلى إظهاره وبيانه. ولما دعا الله إلى تصديق رسوله بالحجة العلمية الخُلقية من بيانه وتجاوزه ذكر بهذه النعمة العظمى في قوله: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} (المائدة: ١٥) .

وقد دل الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم، ومرضاة خالقهم.وهذه هي هداية الدلالة، وهي من فضل الله العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل في نفسه من التمكن والاختيار قامت حجة الله على العبد.ثم يسر من شاء– وهو الحكيم العدل– إلى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال، وهذه هي دلالة التوفيق، وهي من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته، وأقبلوا على ما آتاهم من عنده؛ فآمنوا برسوله والنور الذي أنزل معه، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} (محمد: ١٧).

أما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه، فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير، كما قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (الصف: ٥) . فالمقبلون على الله القابلون لما أتاهم من عنده هدوا دلالة وتوفيقاً. والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة، وحرموا من التوفيق جزاء إعراضهم. وكما أنعم الله على عباده بالهداية إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم، كذلك أنعم عليهم فبيِّن لهم ما تكون به الهداية حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون؛ إذ من طلب الهدى في غير ما جعله الله سبب الهدى كان على ضلال مبين فلذا بين تعالى أن هدايته لخلقه إنما تكون برسوله وكتابه، فيتمسك بها من يريد الهدى، وليحكم على من لم يهتد بها بالزيغ والضلال.ولما كانا في حكم شيء واحد في الهداية يصدق كل واحد منهما الآخر– جاء بالضمير مفرداً في قوله تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ}.

أما هداية الدلالة والإرشاد وحدها، فهي كما تقدم عامة. وأما هداية الدلالة والإرشاد مع التوفيق والتسديد، فهي للذين اتبعوا ما جاء من عند الله: من رسوله وكتابه، وكانوا باتباعهم لهامتبعين لرضوانه، المقتضي لقبوله مثوبته وكرامته لهم، ولم يتبعوا أهواءهم ومألوفاتهم وما ألفوا عليه آباءهم ولا أهواء الناس ورضاهم، فكان اتباعهم لرضوان الله سببا في دوام إرشادهم وتوفيقهم، وبقدر ما يكون ازدياد اتباعهم، يكون توفيقهم؛ إذ قوة السبب تقتضي قوة المسبب، والخير يهدي إلى الخير والهدي يزداد بالاهتداء.

وهذا الربط الشرعي بين التوفيق والاتباع، يقتضي الربط ما بين ضديهما: الإعراض والخذلان، وأنه بقدر ما يكون الإعراض عن الهدى، يكون الخذلان والحرمان، والشر يدعو بعضه إلى بعض، والسيئة تجر السيئة.

وقد أفاد تخصيص التوفيق بأهل الاتباع، وجعل التوفيق مسبباً عنه– بما في صلة الموصول من التعليل– قوله تعالى : {مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ}.

وقد منّ الله– بفضله – على العباد بهذا النبي الكريم، والكتاب العظيم، فمن آمن بهما واتبعهما ففيهما ما يهديه إلى كل ما يحتاج إليه في كل سبيل من تلك السبل في الحياة. وباتباعهما– واتباعهما اتباع لرضوان الله– يوفقه الله ويسدده في سلوك تلك السبل– الفردية والجماعية والأممية– إلى ما يفضي به إلى السلامة والنجاة. وتكون تلك السبل كلها له سبل سلام، أي سلامة ونجاة، لأنها أفضت به بإرشاد الله وتوفيقه، جزاء لاتباعه وتصديقه إليها، كما قال تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} (المائدة: ١٦).

فباتباع النص الشرعي تطمئن القلوب بالإيمان واليقين ، فقد تمر على العبد أحوال يكون فيها متحيراً مرتبكاً كمن يكون في ظلام؛ منها حالة الكفر والإنكار، وليس لمنكر الحق المتمسك بالهوى والمقلد للآباء من دليل يطمئن به ولا يقين بالمصير الذي ينتهي إليه.

ومنها حالة الشك، ومنها حالة اعتراض الشبهات، ومنها حالة ثوران الشهوات. وكما أن الله يرشد ويوفق من اتبعوا رضوانه طرق السلامة والنجاة بالرسول ﷺ والقرآن، كذلك يخرجهم بهما باتباعهما والاهتداء بهما من ظلمات الكفر والشك والشبهات والشهوات، وما فيها من حيرة وعماية إلى الحالة التي تطمئن فيها القلوب، كما تطمئن في النور عندما يسطع فيبدد سدول الظلام.

فباتباعهما فقط تطمئن القلوب بالإيمان واليقين ، فتضمحل أمامها الشبهات ، وتكسر سلطان الشهوات ، فتلك الأحوال العديدة الظلمانية التي يكون فيها من أعرض عنهما، أو خالفهما، يخرج منها إلى الحالة النورانية الوحيدة، وهي حالة من آمن بهما واتبعهما كما قال تعالى: {وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} (المائدة: ١٦) .

قال في تفسير المنار :" فبين مزية النور والكتاب المبين بضمير المفرد فقال: (يهدي به) ولم يقل " بهما "، فكان هذا مرجحا لكون المراد بهما واحدا، وهو القرآن. وثم شواهد أخرى تؤيد ما اخترناه غير آيتي النساء؛ كقوله تعالى في المهتدين من أهل الكتاب في سورة الأعراف بعد ذكر بعثة النبي ﷺ إليهم: "فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون" (٧: ١٥٧) وكقوله تعالى في سورة التغابن: "فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا" (٦٤: ٨) على أن هذا المعنى لا يتغير إذا قلنا: إن النور هنا هو النبي ﷺ، فإنه هو المظهر الأكمل للقرآن ببيانه له، وتخلقه به، كما قالت عائشة رضي الله عنها: " كان خلقه القرآن "، ولا نعدم لذلك شاهدا من آياته، فقد وصفه الله تعالى في سورة الأحزاب بقوله: (وسراجا منيرا) (٣٣: ٤٦) .

ثم قال :" وقد ذكر الله هنا لهذا النور ثلاث فوائد.

(الفائدة الأولى) : أنه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ؛ أي إن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور يهديه – هداية دلالة تصحبها العناية والإعانة – الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه، فيقوم في الدنيا بحقوق الله تعالى وحقوق نفسه الروحية والجسدية وحقوق الناس، فيكون متمتعا بالطيبات مجتنبا للخبائث، تقيا مخلصا، صالحا مصلحا، ويكون في الآخرة سعيدا منعما، جامعا بين النعيم الحسي الجسدي والنعيم الروحي العقلي. وخلاصة هذه الفائدة أنه يتبع دينا يجد فيه جميع الطرق الموصلة إلى ما تسلم به النفس من شقاء الدنيا والآخرة ؛ لأنه دين السلام والإخلاص لله ولعباده، دين المساواة والعدل والإحسان والفضل.

(الفائدة الثانية) : الإخراج من ظلمات الوثنية والخرافات والأوهام التي أفسد بها الرؤساء جميع الأديان واستعبدوا أهلها إلى نور التوحيد الخالص الذي يحرر صاحبه من رق رؤساء الدين والدنيا، فيكون بين الخلق حرا كريما، وبين يدي الخالق وحده عبدا خاضعا. وقوله: (بإذنه) فسروه بمشيئته وبتوفيقه. والإذن العلم. يقال أذن بالشيء: إذا علم به، وآذنته به: أعلمته فأذن، ويقال أذن – بالتشديد – وتأذن بمعنى أعلم غيره، ويقال: أذن له بالشيء: إذا أباحه له، وأذن له أذنا: استمع، والظاهر أن الإذن هنا بمعنى العلم ؛ أي يخرجهم من الظلمات إلى النور بعلمه الذي جعل به هذا القرآن سببا لانقشاع ظلمات الشرك والضلال من نفس من يهتدي به، واستبدال نور الحق بها، بنسخه وإزالته لها ؛ فهو إخراج يجري على سنن الله تعالى في تأثير العقائد الصحيحة والأخلاق والأعمال الصالحة في النفوس، وإصلاحها إياها، لا أنه يحصل بمحض الخلق واستئناف التكوين من غير أن يكون القرآن هو المؤثر فيه.

(الفائدة الثالثة) : الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين في أقرب وقت ؛ لأنه طريق لا عوج فيه ولا انحراف، فيبطئ سالكه أو يضل في سيره، وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن على الوجه الصحيح الذي أنزله الله تعالى لأجله، كما كان عليه أهل الصدر الأول، قبل ظهور الخلاف والتأويل ؛ بأن تكون عقائده وآدابه وأحكامه مؤثرة في تزكية الأنفس وإصلاح القلوب وإحسان الأعمال. وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة بحسب سنن الله في خلق الإنسان.[١]

ويقول الله تعالى :" فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى " (طه : ١٢٣). قال ابن عباس: ضمن الله لمن تبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم تلا (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) [٢]

وهذه أعظم ميزة لعقيدة أهل السنة، فهي تعتمد على النص الشرعي من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ، وأمره أن ينذر الناس به، كما في قوله تعالى: "قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ"(الأنبياء: ٥) ، وقال عن السنة أنها هي المبينة للكتاب، فقال سبحانه وتعالى: "وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"(النحل: ٤)، ولذلك كل من ترك النظر والاستدلال بالكتاب والسنة فهو ضال، ولا يغني في النجاة أن

---

(١) – تفسير المنار (٦ / ٢٥٢)

(٢) – المصنف لابن أبي شيبة (١٦٦٣) ومن طريقه أخرجه أبو الفضل عبد الرحمن الرازي في فضائل القرآن (٨٤)، والحاكم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بنحوه، وصححه وأقرّه الذهبي (المستدرك ٢/٣٨١) .

يتمسك المتمسك بأحدهما دون الآخر، فقد قال النبي ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله» [٣]، فعدم الضلال مُنَاط بالتمسك بالكتاب والسنة معاً، فمن تمسك بأحدهما وترك الآخر ضل. فالخوارج تمسكوا بظواهر القرآن فقط فكانوا من أعظم أهل البدع بدعة.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: «ولكن ينبغي أن يعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا، كما قال تعالى: "قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى * ومَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى" [١] (طه: ٢٣، ١٢٤) ولهذا أخبر الله في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله، وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك، وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين، قال تعالى: "وجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأَبْصَاراً وأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ولا أَبْصَارُهُمْ ولا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" (الأحقاف: ٢٦) . ولو نظرنا في تاريخ الفرق لعلمنا أن جميع العقائد المحدثة كانت بعد عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر وعمر وعثمان، ثم كان مقتل عثمان – رضي الله عنه – وبدأ بذلك ظهور البدع، حيث ظهرت الخوارج في عهد عليّ – رضي الله عنه–، ثم تشعبوا وانقسموا إلى فرق عديدة.

وقال تعالى:" قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " (النور :٥٤)

أخبر – جل ثناؤه – أن الهداية في الامتثال للنص الشرعي المتمثلة في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس عليه إلا البلاغ والبيان الواضح لاهداكم وتوفيقكم .

وأخبر الله – عز وجل – أن الذل والهوان في الدنيا والآخرة لمن أعرض النص الشرعي ، قال تعالى :" وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى . وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى " (طه : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧) .

قال ابن كثير في قوله :"وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي " :" أعرض عن ذكري أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه فإن له معيشة ضنكا أي ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة"[٢]

وقال – رحمه الله – في قوله :" قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى " : أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا (الأعراف:٥١) فإن الجزاء من جنس العمل . [٣]

وحذّر الله – عز وجل – المؤمنين من حبوط الأعمال إذا تقدموا على النص الشرعي سواء كان ذلك بقول أو بفعل بقوله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ " (الحجرات : ٢)

---

[٣] – رواه مالك في «الموطأ» ٢/ ٦٨٦، ووصله ابن عبد البر في «التميهد» ٢٤/ ٣٣١ بإسناد عن أبي هريرة مرفوعًا، وأيضا عن عمرو بن عون، وقال: وهذا أيضا محفوظ معروف مشهور عن النبي ﷺعن أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد، وروي في ذلك من أخبار الآحاد. وحسنه الألباني في «المشكاه» (١٨٦).

[١] – مجموع الفتاوي (٣ / ٣١٤)

[٢] – تفسير ابن كثير (٥ / ٢٨٣)

[٣] – تفسير ابن كثير (٥ / ٢٨٤ – ٢٨٥) .

قال ابن القيم تعليقًا على هذه الآية: فحذَّر المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ كما يجهر بعضهم لبعض.وليس هذا بردِّة، بل معصية تحبط العمل، وصاحبها لا يشعر بها فما الظن بمن قدَّم على قول رسول الله ﷺ وهديه وطريقه قول غيره وهديه وطريقه؟! أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر؟ أهـ [٤].

[٤] – الوابل الصيب (ص :٢٤).